منتسكيو

آراؤه ومثله

للأستاذ إسماعيل مظهر

إن اسم منتسكيو لاسم عظيم. والأثر الذى خلفته أعماله ينزل من الخلود فى داخل أوربا وفى خارجها منزلة تمهد لمن يريد أن يترجم له أن يتصل به منتحيا طرقاً شتى ومداخل متفرقة. ذلك بأن أعمال هذا الرجل العظيم قد تركت أثراً رئيساً فى جميع ما ظهر فى عالم الفكر من النظريات السياسية، حتى أن كاتباً من أشهر كتاب هذا العصر قد ذهب فى نقد نظرياته مذهباً قضى فيه بأنها أول ما مهد لظهور فكرة « العقد الاجتماعى » التى كونها « رُوسُو » ودافع عنها أبلغ دفاع. ولا شك فى أنك تبهر بعبقرية هذا الانسان الفذ إذا علمت أن نظرياته السياسية كانت العُمْدة فى صَوْغ دستور الولايات المتحدة، ومن هنا كان أثر « منتسكيو » عظيماً فى الترويج للفكرات والمبادىء التى قام عليها الدستور الانجليزى، كما كانت باكورة الدراسات العميقة التى تناولت بُدايات التكوين السياسى الذى نشأ فى فرنسا خلال القرون الوسطى. فكان بمجموعة أعماله ودراساته وأفكاره من الرجال الذين عبَّدوا الطريق للثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر.

لهذا يجدر بنا أن نمهد للكلام فى الترجمة له بذكر شىء من الأطوار التى تقلبت فيها حياته السياسية. فقد كان « منتسكيو » رئيساً لمحكمة « بوردو » العليا، وهى أول هيئة تشريعية إقليمية كانت فى فرنسا. وكان أعضاؤها يطمعون فى أن يكون لهم مقاعد فى محكمة باريس العليا. غير أن محكمة العاصمة الكبرى لم تذعن لهذا المطلب. لهذا ظلت النزعة « البرلمانية » جلية الأثر جد الجلاء فى كل ما كتب « منتسكيو »، بالرغم مما كان يطب فيه من الالمامات التاريخية المستفيضة وتعلقه فى مجال البحث الاجتماعى بمعالجة مشكلات أوربا خاصة؛ والانسانية عامة. فيجب أن نعي إذن ذلك الأثر المزدوج الذى أحدثته المحاكم العليا فى تاريخ فرنسا. فانها كانت حتى نهاية القرن السادس عشر الأداة الرئيسة التى اتخذتها الملوكية المركزية، ذريعة لمدِّ نفوذها، وتثبيت سلطانها، إتقاء لنفوذ النبلاء ومطامعهم من ناحية، ودرءاً لسلطان الكنيسة من ناحية أخرى. وكانت هذه الأداة مجدية فى إضعاف نفوذ النبلاء الموروث، وهو نفوذ يتضمن فيما يتضمن سلطاناً واسعاً، مالياً وإدارياً.

وكانت الخطة أن تقرر المحاكم العليا أن من حقها النظر فى « الدعاوى الملكية » التى كان كبراء أصحاب القطائع يرغبون فى أن تنظر أمام محاكمهم الخاصة. وكذلك قررت تلك المحاكم على اختلافها، أن من حقها النظر فى الدَّعاوَى التى يقتضى النظر فيها انتقاصاً من سلطان الكنيسة، قضائياً ومالياً. ولا شك فى أن القوة الباطشة التى حازتها الملوكية المركزية فى فرنسا فى القرن السابع عشر، كانت نتيجة لأشياء ثلاثة: الجيش، ومجلس البلاط، والمحاكم العليا.

ولم تكن المحاكم العليا عند أول نشأتها فى فرنسا، إلا جزءاً من مجلس البلاط. وكان من أثر هذه المحاكم كما يقول « هانوتو » أن احتفظت فرنسا بوحدتها، ولم تُمزَّق ولايات متفرقة.

وفى أخريات القرن السادس عشر حدث انقلاب، ساد محاكم فرنسا العليا، وظهر أثره واضحاً فى روحها المعنوية وفى عملها. فانها بدأت تستمسك بقوة بكل ما يدعى الملك من حقوق الدولة، لتقضى بذلك على ما بقي لكبار أصحاب القطائع ورؤساء الكنائس من الامتيازات. غير أنها، بجانب هذا، بدأت تظهر بمظهر الأداة المستقلة عن إرادة الملك أيضاً. فكانت بطبيعة تكوينها وتاريخها، الوسيلة الوَحِيدَة التى يمكن أن تعارض إرادة الملك آمنة رخية البال. ذلك بأن أعضاء هذه المحاكم كانوا يملكون بالوراثة حق الجلوس فيها. ولم يكن من الهين أن يُسلب واحد منهم حقه فيها، حتى أن « رشيليو » فى كتابه « العهد السياسى »، قد عَبَّر بعمق عن الأخطار التى يجوز أن يواجهها العرش من نفوذ أعضاء المحاكم العليا، أو من مسلكهم الذى يسلكونه عند الضرورة. وعصر « الفُرُونْد » Fronde والسنوات الأخيرة من حكم الملك لويس الخامس عشر، قد حققت كل ما جال فى مخيلة « رشيليو » من المخاوف. ومجمل ما نرمى إليه من هذا كله أن نوضح أن « منتسكيو » كان يرى أنَّ الوظيفة الأولى للمحاكم العليا إنما هى فى أن تصمد لقوة الملك وأن تحد من سلطانه: قال:

« إن هذه الهيئات — المحاكم العليا — من أبعد الأشياء

تلاؤماً مع طبع الملوك . فان أعضاءها كثيراً ماينقضون على الملك بسرد حقائق غير مرغوب فى سماعها ولا يتصلون بالملك إلاّ لعرض الشكايات الحق . وأنت إذ ترى أن فئة من البطانة الملكية تلقي فى سمع الملك دائماً أن الشعب فى رغد وسعادة فى ظل الحكومة ، إذا بتلك المحاكم تظهرما فى أقوال هؤلاء من كذب ونفاق ، وتقرع مسامع العرش ، حيناً بعد حين ، بصدى تلك الأنّات العميقة الجافية التي تتنفس عنها صدور أولئك الذين يمثلونهم »

* * *

كتب منتسكيو بضع عبارات بالغة منتهى الجودة والابداع حلل فيها نفسيته ، وصور بها أخلاقه ويحسن بنا أن ننقل بعض فقرات منها ؛ وذلك أقوم سبيل تعرف به شيئا من حقيقة منتسكيو :

يقول إنه وهب حساً عميقاً جعله يقدس معنى الصداقة ، فلم يجازف بان يخلع نعت الصديق على كل من اتصل بهم من الناس ؛ ولذا يذكر ، ولعله يذكر بحق ، أنه لم يفقد طوال حياته غير صديق واحد .

وكان خجولاً . حتى أن الخجل كان مصيبته الخلقية الكبرى ؛ قال :

« يخيل إلىّ ان الخجل يغشّى على كل أعضائى الجسمانية ، فيربط لسانى ، ويظلم أفكارى ، ويقضى على كل ما عندى من قدرة على التعبير . ومن العجيب أنى أقل تعرضاً لنوبات الخجل فى حضرة ذوى الألباب منى فى حضرة الحمقى والمغمورين »

فلا عجب إذن إذا رأينا « منتسكيو » يمقت كل المقت ذلك الجو الخانق الذى كان يأنسه فى البطانات الملكية ؛ قال :

« لم أجهد نفسى فى أن أسعد وأربى من طريق البطانة . وإنّما أمّلت دائماً أن أثرى من عملي فى ضياعى ، وأن أتلقى الخير من يد الآلهة لا من يد البشر » .

وليس لنا بعد هذا أن نعجب من أن « منتسكيو » كان لا يرى سبيلا للفرار من متاعب الحياة إلا بالنزوع إلى أسمى ما تتجه إليه الأنفس الأبيّة ، المتطلعة إلى المثل العليا ، والغايات السامية ؛ قال :—

« كان الإكباب على الدرس والتحصيل الدواء الواحد الذى استطعت أن أنجو به من كثير من مرارات الحياة . ولم آنس فى الحياة من حرج ، لا تكفى ساعة واحدة أقضيها فى القراءة ، لكى تذهب بكل آثاره من نفسى »

وكان عريض الأمل ، شامل النظر ، كُلى المرامى ، إنسانى النزعة ، فان الثورة الفرنسية ، وهو من أكبر المهدين لها ، لم تلبث أن استفوت عليها بعد قليل الروح القومية ، فأسلمت نابليون قيادها ، وألقت بين يديه بروحها ؛ تلك الروح التى كانت أكبر الأسباب فى انتصاراته ؛ غير أن سيل الفكر الجارف الذى تقدم شبوب الثورة ، كان من غير شك ، ذا صبغة إنسانية . ومن كلمات لمنتسكيو ننقلها هنا يتضح لك الاتجاه الحقيق للفكر الفرنسى قبيل الثورة العظمى ؛ قال :

« إذا وضح لى أن شيئاً من الأشياء لى فيه نفع ، ولكنه مضر بأسرتى ، فإنى أنفيه من عقلى ، وأطرده من مخيلتى . وإذا وقعت على شىء نافع لأسرتى ، ولكنه مضر بوطنى ، فإنى أجتهد فى أن أنساه . أمّا إذا سقطت على شىء مفيد لوطنى ، ولكنه مضر بأوربا ، أو بالسلالة البشرية ، فأقل ما أعتبر أن فيه جريمة كبرى . »

وكان لمنتسكيو نظرات فلسفية عميقة فى حقيقة الخلق الانسانى ، طبقها واتخذها فى الحياة إماماً . وكان ككل الفلاسفة العمليين الذين درجوا من قبله يعتقد أن اللذة والألم دستور السلوك الانسانى . ولكنها اللذة التى لا تظفر فتصير شهوة ، والألم الذى يحتمل بصبر وشجاعة فى سبيل تحقيق المثاليات ؛ قال :

« إن دورة عقلى قد هيئت ، لحسن الحظ ، بحيث تجعلنى شديد الحساسية فأتأثر بالأشياء ابتغاء الاستمتاع بها . ولكن لم تبلغ حساسيتى بالأشياء حداً يجعلنى أتألم من فواتها »

من هنا نستطيع أن نؤلف صورة تدلنا على شىء من حقيقة « منتسكيو » ، وهذا كاف للتعريف به . ولهذا ننتقل الى الكلام فى مبادئه ونظرياته السياسية ، فإنها أخص ما يعلق بالذهن كلما ذكر اسم « منتسكيو »

* * *

إذا شرعت تقرأ كتاب منتسكيو «روح القوانين» ، وضحت لك صورتان جليتان : الأولى ، رجوعه فى التدليل على نظرياته إلى التاريخ ؛ والثانية : نزعته إلى أحكام الآخرة بين النظرية السياسية ، والعلوم الطبيعية . وللصورتين أهميتهما القصوى فى التعريف بمنتسكيو ودرس مذهبه . ناهيك بأنهما بداية ذلك التطور الفكرى الكبير الذى تناول منازع هذا الرجل العظيم منذ نشأته

مُفكِّراً ، حتى تمام تكوينه كقوة عظيمة ، أثرت ، ولا تزال تؤثر ، فى مناحى الفكر والعمل الانسانى .

كان « منتسكيو » مفرط العناية بقراءة التاريخ . ولن تبالغ إذا قلت إنه كان بالتاريخ أشد هياماً من « روسو » . ذلك إلى أنه أوسع من « فولتير » نظراً ، وأشمل إحاطة ، وأنزع إلى معالجة المشكلات الاجتماعية . ومع كل هذا فإن معرفته بالتاريخ مقيسة على مفهومه الحديث ، كانت ضيقة محدودة . وكان من المحتوم أن يكون علمه بالتاريخ ضيق الحدود ؛ إذا وعينا أن التاريخ الحديث خلق جديد من مخلوقات القرن الثامن عشر

كانت معرفة « منتسكيو » بحوادث التاريخ تامة ، بالغة منتهى الضبط والإحاطة . ولقد حوى كتابه « عظمة الرومان وانحطاطهم » أسمى صور البلاغة ، وجمال الأسلوب . بل إنك لا تقول شططا إذا قضيت بأن أكثر النظريات التحليلية التى بثها فيه « منتسكيو » عند الكلام فى أربعة القرون التى أظلت نشوء النصرانية ، سبقاً وتعقيباً ، كانت عادلة متزنة ، لا هي إلى الافراط ولا هى إلى التفريط . ولقد كتبت الفصول الأولى من هذا الكتاب فى عصر لم يكن سلطان النقد قد تناول فيه التاريخ بعد ؛ فإنه كتبها قبل ظهور كتاب « تيبوهر » الذى يعد الفتح الأول للنقد فى مجال التاريخ . وكانت آراؤه فى القيصرية الرومانية الغربية وسبب انحلالها نفس الآراء التى ذاعت فى سبب انحلال القيصرية البوزنطية . وتلك وجهة من النظر التاريخي ذاعت فى القرن الثامن عشر ؛ ومن حسن الحظ أن البحوث التى ظهرت فى خلال نصف القرن الماضى ، قد طهّرت منها عقول المؤرخين ، تطهيراً كاملاً

وكان « منتسكيو » ، إلى هذا ، محيطاً بتاريخ رومية أوسع إحاطة ، فاهما جوهره أقوم فهم ، ملماً بعناصره أمتن إلمام . ولكن معرفته بتاريخ اليونان كانت بغير شك أقل من معرفته بتاريخ رومية . وكتاباته فى تاريخ العصور الوسطى ، لا تخرج عن كتابات مُلِمٍّ بالآثار البدائية (الأرخيولوجيا) لا بالتاريخ

أما معرفته بتاريخ فرنسا فكانت شاملة ، وبخاصة تاريخها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ؛ ولا شبهة فى أنه كان محيطاً بتاريخ العصر الذى عاش فيه . وكان شديد العناية بدرس تاريخ انجلترا ، مشغوفاً بمسائله ومشكلاته . ولكن نظرته فيه كانت شاذة بالرغم من طرافتها

ولم يهمل « منتسكيو » التاريخ العام ، الذى يعتبر تاريخ رومية وفرنسا وانجلترا ، أجزاء منه ونتفاً ؛ بل زوده بعناية الدرس والتحصيل . فان تاريخ مصر وبابل والهند والصين واليابان وشعوب خط الاستواء ، وشعوب الجد الشمالى ، كانت ماثلة له حية فى مخيلته . ولكن لم يكن الزمان قد زَوَّدَ المشتغلين بالتاريخ بعد بمادة يستخرجون بها من ماضى الشعوب صوراً واضحة جلية

يظهرنا هذا على أن عنايته بالتاريخ كانت كبيرة ولكن من الخطأ أن تتصور أن فلسفته السياسية كانت مستمدة من معرفته بالتاريخ ، أو مستندة إليها ؛ فانك إذا مضيت تماثل بين ما كتب أرسطوطاليس أو لا دويرابس ، وبين ما كتب « منتسكيو » وقمت على الفارق العظيم ، والصدع النائى الذى يفصل « منتسكيو » فى العصور التى تقدمته ، والعصور الذى تلته ، وجملة الفارق بين الأساليب التى اتبعها القدماء والأساليب التى انتحاها المحدثون . فان « منتسكيو » كان يتخذ من التاريخ مضربا للأمثال والتلات ، ليؤيد وجهة نظره ، ولكنه لم يستمد من التاريخ بالذات تلك الآراء التى قامت عليها نظرياته السياسية ، وليس عندنا من دليل على هذا أقوم من الدليل الذى نرجع فيه إلى الفصل الثامن من كتابه « روح القوانين » إذ يقول :

« كما أن الديمقراطيات تفسد وتنهار باعتداء الأمم على المحاكم العليا ـ البرلمان ـ والحكام والقضاة ، واستلاب حقوقهم وخصائصهم ، كذلك تسقط الملوكيات ، أو هى تأخذ فى الانحلال إذا مضت تسلب من النقابات والجميات والمدن امتيازاتها الطبيعية والحالة الأولى مظهر لاستبداد الجماعات ، والثانية مظهر لاستبداد الفرد . »

« إن السبب الذى أسقط أسرتى « تسن » و « سووى » كما يقول مؤلف صينى ، إنما يرجع إلى أن أمراء الأسرتين لم يكتفوا من الحكم بالاشراف الأعلى على شئون الدولة ، كما كان شأن الأمراء فى الأسر اللواتى سبقت فى الحكم ، وكما هو طبيعى أن يكون فى ملوكيات رشيدة ؛ بل حاولوا أن يتحكّموا ويحكموا فى كل شأن من الشئون بأنفسهم ، وبغير واسطة . وكلمات هذا المؤلف الصينى ، تعبر عن الأسباب التى يعود إليها

سقوط الملوكيات فى كل الأزمان . »

« إنما تسقط الملوكيات بأن تقوم فى نفس الملك شهوة ان يظهر جبروته وسلطانه ، فيحرّف النظم المقررة ويفسدها ، بدل أن يحافظ عليها ويرعاها . ومثل ذلك أن ينتصب الحقوق والامتيازات التى تقوم عليها بعض النظم من يد فئة ، ويهبها باختياره ، ولمجرد إشباع شهوته ، لفئة أخرى ، أو أن يحكم خياله وتصوراته فى شؤون الدولة ؛ دون عقله وتُهاه . »

« تنهار الملوكية عند مايقدم ملك يحاول أن يحصر كل شىء فى ذاته . فيركز الحكومة فى عاصمته ، ويركز العاصمة فى بطانته وحاشيته ، ويركز البطانة فى ذاته ؛ وفوق كل هذا يكون سقوط الملوكية سريعاً مروّعاً ، عند ما يسىء الملك فهم سلطته ومركزه ، وحب شعبه له ، وعند ما يغيب عن فهمه أنه يجب أن يشعر دائماً بأنه فى أمن وسلام ، قدر ما يشعر المستبد القاهر أنه دائماً فى خطر » اهـ

فهل من شك فى أن « منتسكيو » ، وهو رئيس محكمة « بوردو » العليا إنما يُعبِّر بهذا عما قام فى ذهنه عن ملوكية لويس الرابع عشر وخَلَفِه ، وأنه ذلك المؤلف الصينى ، الذى يخيَّل إلينا أنه لم يوجد إلاّ فى مُخيِّلة مؤلف « روح القوانين » لم يُقحم فى هذا الموقف إلاّ ليكون مادة لضرب المَثَل ، وإظهار المُثْلَة ؟ ليس هذا ببعيد . ذلك بأن « منتسكيو » يعرف تمام المعرفة ، كما ذكر فى غير الموطن الذى نقلنا عنه هذا القول ، أن الملوكيات كثيراً ما فسدت وانحلت متأثرة بأسباب تختلف كل الاختلاف عن الأسباب التى ذكرها .

كذلك لايستطيع المؤرخ أن يعزو كبير قيمة لنزعة هذا العبقرى إلى الاستعانة بالعلوم الطبيعية . فإن قوله بأثر البيئة الطبيعية كأن أمراً له فى البحوث الاجتماعية والسياسية ، إلى جانب الجدة والحداثة ، خطره العلمى . غير أن هذا البحث جَلُوا فى الصورة التى لابسته فى ما كتب « منتسكيو » ، وفى الصورة المحرفة التى ظهر بها فى بحوث « روسو » ، لن يجد فيه المفكر الحديث مقنعاً ، أو يقع فيه على حقيقة تنقع الغلة . فلقد عالج تطبيق العلوم الطبيعية على الاجتماعيات من وجهة هي على غرابتها وبعدها عن مناحى الفكر الحديث ، تثير عند المحدثين الذين يعرفون مرامى العلم العملى ومنازعه ، كثيراً من الاستخفاف بها ، والسخرية منها . ومثلنا على ذلك ما عالج به حالات انجلترا الاجتماعية من الآراء التى بثها فى فصلين من «روح القوانين[1]» فإن آراءه التى بثها فى ذينك الفصلين ، تحمل على القول بأن « منتسكيو » كان فيها إلى الهزل والمجانة ، أقرب منه إلى الجد . ويزيدنى بهذا الأمر ثقة أن فلاسفة القرن الثامن عشر لم يَتعفَّفوا عن النزعة إلى المجون ، بجانب ما كان فيهم من حب النفع العلمى ، والاستقامة فى التفكير . وعندى أن «منتسكيو» لم يرم بما كتب فى الفصلين السالفين إلا إلى الاستخفاف بقرائه من الانجليز . وما قولك فى رجل يبدأ البيان عن حالات الانجليز الاجتماعية بالكلام فى تأثير طقس بلادهم ، فيعزو إليه نزعة الانجليز إلى الانتحار ! ثم يحاول أن يعلل الصورة التى تلابس ميولهم القومية ، فيقول إنها ترجع إلى ضعف الاستعداد الطبيعى على ترشح العصارة العصبية . وهذا قول لايكفى أن يكون سبباً فى تعليل ميول الانجليز القومية لاغير ، بل يكفى للقول بأن الشعب الانجليزى مقضى عليه بالفناء جميعاً .

وهو يحاول فى فصل تال أن يفسر تأثير ذلك الأمر على شكل الحكومة الانجليزية فيقول إن سلالة لها استعدادها فى التأثر بالاستثارات المختلفة وقلة ثباتها على شىء ، لن تصبر على حكومة تُلْقى مقاليدها فى يد فرد واحد ، فلا تقوم خارجة على سلطان الحكومة وعلى سلطانه ، وإنه من الطبيعى أن تحلم أمة غَرَسَ فيها طقس البقعة التى تسكنها من كرة الأرض خليقة القلق والجزع ، بحيث لا تحتمل البقاء على حالة بعينها ، أو الصبر على شىء بذاته ، بقوانين مستخلصة من التجارب ، فيكون من الصعب نبذها والنزوع إلى غيرها . ويخلص « منتسكيو » من هذا إلى رأى أعجب من كل آرائه الأخر ، مؤداه أن الدستور الانجليزى ، إنما هو جنى الضباب الذى يحط على بلادهم . أضف إلى ذلك أنه يعزو دين الانجليز إلى السبب عينه ، فى موضع آخر من ذلك الكتاب .[2]

اسماعيل مظهر

---

(١) هما الفصلان الثانى عشر والثالث عشر .

(٢) المصادر : دائرة المعارف البريطانية ، وبخاصة بحث الاستاذ أ . ج جرانت أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة ليدز سابقاً .